

## الأسرة الإنجليزية

للكاتبة الإنجليزية سيسلي هاملتون

من كتابها " المرأة الإنجليزية " ترجمها وخلصها عن الإنجليزية الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

### الأسرة الصغيرة :

تغير البيت الإنجليزي منذ بداية القرن العشرين تغيراً أثر كثيراً في حياة المرأة الإنجليزية . يرجع بعض هذا التغير إلى أن نسبة المواليد هبطت في إنجلترا ، كما هبطت في جميع أنحاء العالم المتمددين خلال السنين الخمسين الماضية . فأدى هذا إلى نقص في حجم الأسرة وقلة في عدد أطفالها ، وصارت نسبة الأطفال إلى مجموع السكان في إنجلترا أقل منها في سائر أوربا إذا استثنينا السويد .

تتناقض الآراء في هذا — في قلة الولد وصغر الأسرة — تناقضاً عنيماً ، ففئة من يرى فيه الخطر يتهدد بأن الأمة وينذر بها بالوهن والتخاذل ، وثمة من يرى فيه الخير لقطر كإنجلترا كثيف السكان شديد الازدحام ، لا تيسر فيه فرصة العمل لكل قادر عليه من الرجال والنساء رغم تنوع المرافق ووفرة الثراء .

على أن ما يعينني هنا أن أبحث أثر " الأسرة الصغيرة " في الحياة العائلية . فأرى ، أول ما أرى ، أن انخفاض نسبة المواليد صحبه انخفاض في نسبة الوفيات ، وعلى الأخص في نسبة الوفيات من الأطفال . لم كان هذا ؟ لا يمكن أن نعلم هذا بأن أمهات اليوم أكثر حياً لأولادهن ، وأشد عناية بتنشئتهم ، من أمهات الأمس . وإنما الواقع الذي يجب أن نقره هو أن الوالدة الحديثة أقدر وأمهراً من الوالدة القديمة في تربية طفلها والحفاظ على حياته ، وأن قلة الولد تيسر لها هذا العمل قدر ما كان يعسر على أمها أو جدتها الولود .

قال احد رجال التربية : إن هذا العصر هو عصر الطفل . صدق في هذا ، فقد صارت تربية الطفل في كل شعب متمددين فرعاً من فروع الثقافة العامة ، وشأننا من شؤون الإصلاح الاجتماعي . صارت الفتيات يتلقين في مدارسهن على مدرساتهن ، والسيدات يتلقين عن طريق الكتب والمصحف والراديو ، من وسائل الارشاد والتوجيه ما يمكنهن من أن يرعين أطفالهن رعاية رشيدة مثقفة ، ذات قواعد خاصة وذات أغراض معينة .

لم تعد الأم الحديثة تربي طفلها — كما كانت تربي أمها وجدتها — وفق ما تهديها وتوجهها غريزة الأمومة ، مضافا إليها ما تكسبه من التجارب والدروس . كلا ؛ بل صارت الهيئات الاجتماعية المختلفة تهيب لها الوسائل العلمية لتربية طفلها منذ أن تململه جنينا إلى أن يشب يافعا .

جلست ذات مرة في دار من دور " الترحيب بالأطفال " المنتشرة في أرجاء إنجلترا ، فرأيت وفدا من هؤلاء الضيوف الصغار تتلقاهم الممرضات لقاء البشر والترحيب ، فيزك أجسامهم ويفحصن أبدانهم ، ثم تذهب أمهاتهم إلى طبيب الدار يعرضن عليه أطفالهن فإذا اتتهن من استشارته عما يهمهن من أمور الأطفال اجتمعن حول مائدة كبيرة فتناولن الشاي والحلوى بينما الطبيب يلقى عليهن محاضرة يسيرة شائقة عن صحة الوليد ورعاية الطفل .

كانت هذه الدار إحدى ثماني عشرة دارا في مدينة واحدة من مدن إنجلترا المتوسطة ، وفي إنجلترا مئات من هذه الدور التي لا تحمل الخزانة العامة كثيرا أو قليلا من نفقاتها ، إذ الفضل في إنشائها وإدارتها يرجع إلى الهبات السخية التي يتبرع بها الخيرون من الأثرياء .

ليست مهمة دور " الترحيب بالأطفال " هذه مقصورة على فحص الأطفال ونصيحة الأمهات ؛ فبما ما يقيم من حين إلى حين معارض يفد إليها الناس ليروا خير غذاء تتناوله الحوامل وتقوية لهن على مشاق الحمل والولادة ، وخير غذاء يقدم للأطفال تنمية لخلاياهم الناشئة وتقوية لعظامهم الغضنة ؛ وهي تراعى في اختيار ما تعرض من ألوان الطعام أن تكون ميسورة لعامة الناس مع اشتغالها على أكل عناصر الغذاء . ومنها دور تستضيف أطفال الحى يوما أو يومين من كل أسبوع ؛ فيودعهم أمهاتهم في كفالة الممرضات حيث يمضون ساعات اليوم يرحون ويتأرجحون بين الزهور والشجيرات ، وعلى الأعشاب والرمال ، وما إلى ذلك من لحو الطفولة ونشاطها .

فهل لنا أن نعجب إذا حين تبنينا الإحصاءات أن أساة موت الطفل صارت اليوم أقل وقوعا مما كانت في عهد أمهاتنا ؟

إن أزواج اليوم ، شبانا وفتيات ، يقدرون مسألة الأبوة والأمومة تقديرا جديا ؛ فلم تعد الفتاة التي ترجو أن تكون أما لطفل يوما ما تنظر مجيء هذا الطفل ثم تمرن وتدرب على تنشئته وتربيته ، بل صارت تتأهب للقاء هذا الطفل حتى قبل أن تتزوج بما تقرأه وتدرسه من شؤون التربية والترريض . لقد نشأت حرفة جديدة ، هي حرفة الأمومة ، وبفضلها أمكنها في ربع قرن أن تنقص وفيات الأطفال بمقدار ٥٠ ٪ / فصارت في سنة ١٩٣٠ نصف ما كانت في سنة ١٩٠٥ ولم يكن هذا التقدم العظيم في حياتنا العائلية مقسورا على طبقة دون طبقة ؛ ولم يكن حظ الفقير منه أدنى من حظ الغنى ، بل شمل وأفاد جميع الأوساط .

كذلك من المزايا المشهودة في هذه "الأسرة الصغيرة" أن الأم الحديثة تستطيع أن تكون صديقة ورفيقة لطفلها أو لطفليها عند ما يشبان عن دور الطفولة، على تقيض جدتها في العصر الفيكتوري التي كانت تنجب ثمانية أو تسعة أطفال ، فتظل منذ سن الزواج الى سن اليأس في سلسلة متصلة من الحمل والوضع والرضاع والتربيض ، ولا تخلو إذا فرصة طويلة تصادق فيها أطفالها الذين يكبرون ، ويتعلمون من أمهاتهم صراحة تؤسهم وترشدهم وتهديم .

تستطيع الأم الحديثة أن تشارك ابنها بعض ميله وبعض نشاطه حين يترك البيت الى المدرسة ، ثم حين يخرج من المدرسة الى الحياة . ومعنى ذلك أن هذه الأم صارت أدنى الى قلب ابنها مودة وقربا ، وأوثق بحياة ابنها وشيجة ورباطا ، من تلك الأم القديمة التي كانت لا تكاد تفرغ من رضاع وليد حتى تبدأ في حمل سواء ...

لست أريد أن أقول إن حب الأم ابنها زاد في القرن العشرين ، وإنما أقول إنه حب من نوع جديد : حب فيه صداقة تقرب بين جيل الأم وبين جيل ابنها ، فتؤلف بين تفكيرهما وشعورهما وميولهما .

### التدبير المنزلي :

نشاهد تطورا ثانيا في الأسرة الانجليزية مرجعه الى أن نساء الطبقة الوسطى صرن أمهز مما كن منذ عشرين أو ثلاثين سنة في الأعمال المنزلية .

كانت السيدة الانجليزية فيما مضى تكاد تجهل كل الجول فن الطهي ، وكان المطبخ في عامة البيوت المتوسطة منطقة تختص بها الطاهية وحدها . فكانت الفتاة تنشأ في هذه البيوت كأماها لا تدرى شيئا من صنع الطعام الذي تزدره سائغا شيبا ، ولا سيما أن مدارس البنات لم تكن تعلمها كثيرا من أمر المنزل وما يتطلبه من عمل وتدبير .

كانت الأعمال المنزلية إذن من اختصاص طبقة معينة يرتزق نساؤها من موارستها كمرميات أو طاهيات . فكانت الفتاة في الطبقة الوسطى تقدم على الزواج وهي لا تدرى من أعمال البيت وتدبير ميزانيته كثيرا ولا قليلا . اعتمادا على امرأة من تلك الطبقة الفقيرة تستخدمها فتكفيها مشقة العمل وءوثة التدبير .

ما الذي أدى الى تغيير الأمر فصارت السيدة الحديثة تعتمد على نفسها في تنظيم بيتها ؟ أدى الى ذلك إثمار الأسر في الوقت الحاضر سكنى "الشقق الصغيرة" على سكنى المنازل الكبيرة . كانت الأسرة الانجليزية فيما مضى تؤثر أن تستقل بمسكنها ، تشيا مع طبيعة الرجل الإنجليزي الذي يمنح الى الدزلة ويميل الى الانفراد . وكان هذا المنزل المستقل يتناوت ، حسب ثراء الأسرة التي تسكنه ، بين الكوخ المترونى الضئيل والبيت المؤلف من عدة طباق .

وكثيرا ما كانت الأسرة التي لا تتجاوز سبعة أو ثمانية أفراد تسكن بيتا شامخا فسيحا فيه عشرون حجرة أو ثلاثون ، ذلك أن مثل هذه الأسرة كان يقبها جمع من الخدم والمشم يسفلون جانبا كبيرا من البيت . أما اليزم فتمتد قسمت مثل هذه البيوت الى " أدوار " أو الى " شقق " يسكنها عدد من الأسرات . وأخذ الناس يعدلون - سواء في المدن الكبرى أو في الضواحي النائية - عن بناء تلك المنازل المستقلة ، ويقبلون دلي بناء العمار الضخمة التي تشمل عشرات بل مئات من المساكن الصغيرة .

انتشرت هذه المأوى السنين الأخيرة انتشارا كبيرا وأقبل الناس على سكناه أشد الاقبال ، وذلك لسببين : أولهما ، صغر حجم الأسرة فلم تعد ثمة حاجة الى البيت المستقل الكبير ، وثانيهما ، قلة الخدم وزيادة أجورهم منذ أخذت الصنعة الحديثة تجذب اليها الصبين والنقيات والنساء ، فآثر الناس المساكن الحديثة الضيقة حيث لا يقتضى العمل فيها جهدا ونصبا .

هذه المساكن الصغيرة أرغمتنا على أن ننزل عن كثير من العادات المنزلية التي نشأنا عليها وأن نروض أنفسنا على تقاليد أخرى كان آباؤنا ينفرون منها ، فمن ذلك أن حملت المرأة على أن تعتمد على نفسها ، لا على خادمها ، في تدبير شؤون بيتها . وقد صار هذا العمل أيسر وأنفع مما كان ، بفضل كثير من الأدوات المنزلية الحديثة التي تعفى المرأة من كثير من العمل المجهد . وكان دخول الكهرباء الى البيوت نعمة على رباتها ، فقد حلت محل أيديهن في كثير مما كان يجهدن من طهي الطعام وإعداد الشراب وكى اللباس وتدفئة المساكن وغير ذلك .

على أنى لا أريد أن أقول إن المرأة الإنجليزية الحديثة برئت كل البرء مما كان يعاب على أمها من جهل بشؤون الطهي وتدبير المنزل . كلا ، لما زلنا شعبا فقيرا في الطاهيات البارعات وفي الطهارة المجيدن . ومن المؤسف أن نظل الى اليوم مطاعم الدرجة الأولى في لندن يديرها الأجانب غالبا . ومرجع هذا فيما أرى الى أن تعليمنا الثانوى لا يعنى العناية الكافية بشؤون الحياة البيئية قدر عنايته بتلك الدروس النظرية التي يحشوها الرءوس حشوا قالما ينفع ويجدى ...

لو كان لى الأمر فى التعليم لفرضت دروسا فى التدبير المنزلى لا على الفتيات وحدها ، بل على الشبان كذلك . فليس من شبابنا ورجالنا من يستطيع أن يغسل ملابسه ويرفأها ، أو أن يعد لنفسه إنطارا أو عشاء ، رغم أنه غالبا ما يضطر الى أن يقضى فترة من حياته دون زوجة ، وكثيرا ما يقترن بزوجة تعمل خارج البيت . فمن حقها أن تستعين به فى بعض أعمال البيت ، كما يستعين هو بها فى زيادة إيرادهما ...

مع هذا كله فإن فتيات الطبقة الوسطى الإنجليزية اللاتي يصلحن " ربات بيوت " زاد عددهن كثيرا منذ بدء القرن الحالى ، فصار الرجل الحديث يقدم على الزواج ودون وفاق أنه

سينجد في بيته زوجا تستطيع أن تفعله وجبة سائفة مغذية بأقل نفقة ممكنة ، وذلك بفضل معاهد التدريب المنزلى التي تقبل عليها الفتيات قبل زواجهن . كل الاقبال . ومرجع هذه العناية بأمر الطعام إلى امرين :

( أولها ) انتشار الدعاية الصحية التي عرفت الناس بألوان الطعام المغذية الجيدة ، ونهتهم إلى أهميتها في تكوين الجسم وتجديد الصحة وبت الحركة والنشاط .

( ثانيهما ) قلة الخدم رغم ارتفاع أجورهم ، فصارت ربة البيت التي لا تستطيع أن تدفع أجرا هاليا جدا تستأجر به طاهية ، ولا يتيسر لها في الوقت ذاته أن تعتمد هي وزوجها وأولادها على المطاعم العامة — صارت تعتمد على نفسها في إعداد الطعام ، فإذا كانت المدارس قصرت في هذا الباب تقصيرا معيبا ، فإن الضرورة أصلحت الأمر واضطرت المرأة إلى أن تجرى شؤون بيتها بيديها وحدها .

### الخادم والعاملة :

تندرج من هذا إلى النظر في تطور ثالث طرأ على حياة المرأة الإنجليزية الحديثة ، وهو انصرافها كل الانصراف عن أعمال الخدمة المنزلية رغم ما فيها من مزايا جزيلة .

أخبرتني إحدى "مديرات" البيوت الريفية العريقة في إنجلترا أن هذه البيوت التي شادتها الإرسوقراطية البعيدة منذ قرون عديدة سوف توصل أبوابها عما قريب . وعلت ذلك بأمر واحد ، هو ما تلاقيه هذه البيوت من المشقة في تهيئة ما يلزمها من الخادومات البارعات . ذلك أن الفتيات والنساء صرن ينفرن من الخدمة المنزلية لأسباب شتى ، منها أن الخادم قلما يتيسر لها جو الصداقة أو الزمالة ، وهو عنصر من أهم عناصر الحياة الممتعة الطيبة ، تعيش الخادوم في شبه عزلة لا تستمتع فيها بمتعة الصداقة ، إذ لا سبيل إلى مصادقة سادتها وهم أرقى منها مرتبة وتفكيراً ، ولا سبيل إلى مصادقة مثيلاتها الخادومات ، لأن كلا منهن منصرفة نهارها وليلها إلى العمل في بيتها . . . هذا العامل النفسى ينفر الفتاة الحديثة من أن تكون خادما ، رغم ما تتقاضاه الخادوم من الأجور العالية .

أما القصور الكبيرة التي تستخدم عددا كبيرا من الخدم والحشم فيتبعها فيها جو الصداقة بين أفراد هذه الطبقة المتأثرين ، ومع هذا فإنها تجد مشقة في إيجاد ما يلزمها من الفتيات والنساء . لقد مضت تلك الأيام التي كانت تحصد فيها العائلة الريفية المتوسطة إذا وفقت إحدى بناتها إلى العمل في "القصر الكبير" الذي يسكنه سيد الاقطاعية . وصارت هذه الفتاة تؤثر الذهاب إلى المدينة حيث العمل أوفر ، والحياة أمتع ، رغم ما في المدينة من مشاق وصماب .

فهذه القصور الريفية على بذخها ونخامتها تنقصها "الحياة" البائسة الخائفة التي يستمتع بها الفتيات والنساء في المدن الكبرى ، حيث الشوارع والميادين ، حيث السينات والمسارح ، حيث الأندية والحفلات ، حيث المتاجر والمعارض ، حيث الأضواء والسيارات والأزياء وغيرها من مظاهر الترف والزينة والبهاء . لم تعد الفتاة تستطيع أن تقاوم رغبتها في هذه الحياة الصاخبة العنيفة ، حتى أن ٩٩٪ من الفتيات يفضلن العمل في المصانع والمكاتب على العمل في البيوت والقصور . ومع أن المربية أو الطاهية أعلى أجرا وأحسن مستأما وأكثر راحة من العاملة في مصنع أو الموظفة في متجر ، إلا أن إثارة الحرية والاستقلال ، والنفور من القيود والتقاليد ، يدفع بالفتيات دفعا لا يقاوم من القرى إلى المدن ، ومن الخدمة في البيوت ، إلى التزول في ميدان الأعمال .

بل إن العمل في الصناعة الحديثة ممل ثقيل ، لأنه يفرض على العامل أن يكرر عملية تافهة طوال ساعات عمله ، يوما بعد يوم ، وشهرا تلو شهر ، وعاما في إثر عام ... في حين أن عمل المربية أو الطاهية يمتاز بألوان من التنوع ، والتفنن يجعله ممتعا محبوبا ، ومع هذا فإن الفناء يؤثر العمل أمام جهاز صناعي على تربية طفل أو إعداد مائدة . ذلك أن العمل الأول محدود بساعات معينة إذا انقضت صارت الفتاة حرة طليقة إلى الصباح التالي ، كما أن في العمل الأول إجازة يوم من كل أسبوع يمكن أن تنتهزه لقضاء وقت طيب مع بعض زميلاتها أو أصدقائها .

إلى جانب هذا تذكر أن فتاة المصنع في إنجلترا صارت في زيها وأناقتهما تعدل أية سيدة وافرة الثراء . انقضت الأيام التي كانت فيها هذه الفتاة تتدثر بشال من الصوف السميك تجعله قبعة ومعطفا معا ، وصارت الفتاة الآن تلبس القبعة الأنيقة والمعطف البديع . وهذه حمنة من حسنات الإنتاج الصناعي الذي ألغى الفوارق بين الطبقات في أمر اللباس ، بما وضعه في أيدي أوساط الناس من القماش البديع والزلي الجميل فصاروا لا يفرقون عن الأثرياء والمترفين كثيرا .

وكذلك الأمر في زينة النساء ، فلم تعد الشموع الموهجة والأظافر الملونة مقصورة على ذوات الزناء ، بل صارت تحلى الرعوس والأنامل من فتيات المصانع والمتاجر والمكاتب .

هذا كله أدى إلى ارتفاع أجور العاملات حتى ضاهت أجور المال بعد أن كانت تنقص عنها كثيرا . وهذا خير . فكل ارتفاع في أجور العمل يؤدي إلى ارتفاع في مستوى الحياة ، أي إلى الارتقاء في درج المدنية التي تحول كثيرا من الكليات إلى ضروريات :

هذه صورة وجزء عن تطور المرأة الإنجليزية والأسرة الإنجليزية في العهد الحديث ، وهو تطور مليء بالدروس والمظاهر التي يجدر بكل مفكر اجتماعي أن يلقى إليها فكره طويلا ، فسيبرى مثل هذا التطور على كل امرأة وكل أسرة ، في كل قطر وكل بيئة .